التكافل الاجتماعى خير ما يصلح هذه الأمة

للأستاذ محمد عبد الكريم

التكافل تضامن المرء مع غيره فى أداء عمل أو فى تحمل مسئولية ، وهو فى الاجتماع حلول القادر محل العاجز فى النهوض بما يفرضه العيش المشترك من تكاليف وواجبات ، فالقوى مسئول عن سد عجز الضعيف والغنى مكلف بمعونة الفقير ، والمتعلم واجبه إرشاد الجاهل والمبصر ملزم بتيسير العيش للضرير .

والتكافل نظام طبيعى ، قائم فى هذا الوجود من يوم أن بدأت الخليقة ودب على البسيطة دبيب الحياة ، وهو سر من أسرار حفظ النوع فى الإنسان والحيوان ، بدافعه تحتضن الأم وليدها وترضعه اللبان ، وبحافزه يحمل الأب عبء ذويه من زوج وولدان ، وما الحب والحنان والرحمة والإحسان ، والتعاون ومشاركة الوجدان ، إلا مظاهر للتكافل ، وآيات لقيام التساند والتضامن .

وككل نظام يقوم على الاجتماع ، يقوى التكافل إذ تقوى رابطة الجماعة و يشتد باشتداد أواصر الصلة بين أفرادها ، لذلك نراه بين أعضاء الأسرة أوثق منه بين أفراد الأمة ، وهو بين هؤلاء أمكن منه بين أبناء الجنس الواحد أو بين أفراد المجتمع الإنسانى عامة . كذلك كان التكافل بين المتحضرين ، أقوى منه عند المتأخرين ، ذلك لما لتقدم المدنية من أثر فى توثيق عرى الروابط بين الناس ، فضلا عما فيه من تنمية لمداركهم ، وتقوية لشعور الفرد بالواجب الاجتماعى . أدرك الإنسان بفطرته فضل التكافل ، فحنا الغنى على الفقير ، وتولى القوى حماية الضعيف ، وقام الخيرون من ذوى العقول يدعون الى تذكية الروح الطيبة ، ثم جاءت الكتب السماوية تحض على التكافل ، فدعت التوراة الى البر والاحسان ، ووضع الانجيل المحبة أساسا للإيمان ، وجاء القرآن الكريم فضمن فى سحر البيان رسالة التكافل بين بنى الانسان ، وكذلك جاءت الأحاديث النبوية الشريفة داعية الى التعاون والتراحم ، ترى فى المؤمنين بنيانا يشد بعضه بعضا ، أو جسدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالحمى والسهر .

وليس لنا أن نعرض فى هذه العجالة لما ذهب إليه دعاة المذهب التكافلى وما قدموه لتدعيمه من براهين ومبررات ، فهذا ما يخرج بنا عن منهاج هذه الصحيفة ، إنما يكفينا القول إن العالم اليوم قد بات أقوى شعورا بالواجب المتبادل بين الفرد والجماعة عن ذى قبل ،

التى ينعمون بها ، فمن العدل أن يرثوا أيضا ذلك الدين الكبير ، دينهم نحو هؤلاء العاجزين ممن حرمتهم الأقدار مامنحته غيرهم من صحة وقوة وساهم الدهر ماحبابه سواهم من يسر وثراء.

ولامراء فى أنه كلما تباعدت أوضاع أفراد الجماعة وتباينت أحوالهم كانت حاجة أفرادها إلى التكافل أشد وافتقارهم إلى التضامن والتراحم أبلغ وأكبر .

فإذا راعينا ماتقدم وعدنا إلى مجتمعنا المصرى نتأمله وجدنا أننا أحوج الأمم إلى التمسك بالتضامن واستشعار التكافل . نعم ينقصنا التكافل ولا نحسبنا مغالين إذا عددناه أفضل السبل لإصلاح شأن هذا المجتمع ، ورأينا فيه الغاية المثلى التى يجب أن يضعها كتابنا ومفكرونا نصب أعينهم . ذلك بأننا أمة فقيرة ، فقيرة فى ثروتها المادية والثقافية والاجتماعية وحسبنا أن نذكر أن تسعة أعشار مواطنينا أميون ومعدمون . وما لنا لا ندعو الى التكافل وقد طغى حب الذات علينا فلم يعد الفرد منا يهتم بغير نفسه أو يعنى إلا بما فيه صالحه وحده .

وما ظنك بأمة لا تعاون بين أفرادها ولا تساند ، تتآمل الأسرة وهى الخلية الحية فى جسم الشعب ، فتراها مفككة العرا مقطعة الأوصال فلم يعد الابن يعنى بأمر أبيه اذا أدركه الكبر ، ولا الأخ يهتم بشأن أخيه اذا حل به الفقر والعوز . وغدت صلة القرابة موقوفا الاعتراف بها على يسر الرجل فإن أعسر أنكره أقرب الأقربين اليه — وإن أيسر نسى بدوره كل من حوله ، وحسبك أن تذهب الى ملاجئ العجزة والمنسولين وتسألهم عن ذويهم فترى أن بين المنسولين الذين حجزوا فى الملاجئ من هم آباء أو أشقاء أو ذوو قرابة لكثير من ذوى المناصب الرفيعة فى هذا البلد . . . وأنهم لولا عناية ولاة الأمور وتيسير العيش لهم بتلك الدور لقضوا جوعا .

وما تراه فى الأسرة تجده فى الأمة : فمالك الأرض لا يعرف عن أرضه و بلده غير محصول يجمع ، وايجار يجبى ، وقانون يشهر فى وجه من يتخلف عن السداد من مستأجريه يحجز بموجبه أقواتهم و يبيع بفعله مواشيهم ودوابهم وقد يكون بين فلاحيه أهل له وذوو قرابة . ترى البلدة يكاد يملكها رجل واحد والكل فى ملكه الشاسع يعملون كالسائمة فلا عناية بأحوالهم ولا رعاية لشؤونهم ، تراها خاوية من كل ما يفيد الجماعة ولا تجد بها مصحة تزيل سقم ذلك الذى أكلت رطوبة الأرض سيقانه وامتصت الطفيليات دماءه ، ولا مدرسة تنير عقول صغاره وأبنائه ، ولا مسجدا يقيم فيه شعائر دينه ويقوى بهدى العبادة فيه إيمانه . وما للسيد يعنى بقومه وقد اصطفى فى حاضرة البلاد قوما غيرهم يقضى و إياهم حياة ناعمة بين الكاس والطاس بعيدا عن متاعب الفلاحين ومشاغل الزراعة والمزارعين .

هذه حالنا ، ونحن لا نعدو الحق إذا قلنا إن مبعث أدوائنا ومصدر بلائنا ، هو إهمالنا التكافل ، وانصرافنا عن التعاون والتضامن ، ولو عرف صاحب العمل واجبه نحو عماله ،

فعنى بشؤونهم ، وعمل على راحتهم ، والترفيه عنهم ، أو أدرك مالك الأرض أن عليه دينا لهؤلاء الذين يخرجون له من الترب تبرا فأقام بينهم أو تردد فى أوقات متقاربة عليهم ، وجعل همه وشاغله تحسين أحوالهم الصحية والمادية والخلقية . لو عرف كل هؤلاء واجبهم لحسن حال البلد ولما كان ثمة مجال لشكاية الشاكين وتبرم المتبرمين . يقول البعض من أعداء التكافل مالنا وما للتكافل نعوّد الناس به التواكل ونعلمهم الاعتماد على غير أنفسهم" .

وقد نسى هؤلاء أن التكافل شيء وأن التواكل شيء آخر . وشتان بين ما يراه المتواكلون كاتباع مذهب "نيرفانا" البوذى الذين يأبون العمل ، وبين دعوة تقوم على نظام طبيعى لاغنى لمجتمع عنه بل ولا بقاء لحى دونه ، نظام قوامه السعى والعمل يكلف كل نفس وسعها ويحمل كل فرد من مسئولية الجماعة قدر طاقته .

نحن فى حاجة إلى إدراك معنى التكافل و إلى الدعوة اليه فى كل طبقاتنا لأننا أمة من الاجراء المعدمين تنحصر ثروتها فى أيدى نفر قليل من أبنائها ومن غير أبنائها . ولا سبيل لإصلاح شأن الأكثرية مالم تعاونها تلك الأقلية القادرة وتأخذ بناصرها .

ننادى بالتضامن ونقولها مدوية فى آذان هؤلاء الذين يملكون أرض مصر الغنية ومنابع ثروتها إذا جاز لهم أن يستغلوا هذا الإجراء فليس أقل من أن يكفلوا لهم القوت و ييسروا لهم أسباب العيش .

تلزمنا الدعوة إلى التساند والتعاون ليذكر سادتنا الذين يملكون الضياع الواسعة والأراضى الشاسعة أنه إذا كان لهم فيما ينالون حق فعليهم لقاء ذلك واجب ، واجب رعاية أولئك الذين يعملون من أجلهم و يبنون بأيديهم غرس يسرهم .

يجب علينا بثّ روح التكافل بين الجميع ليدرك هذا العدد اليسير من المتعلمين أنهم مسئولون عن تلك الأمية التى يوصم بها السواد الأعظم من الشعب حاملون لوزر جهالته وتأخره .

نفتقر إلى التراحم و إلى الشعور بالواجب الاجتماعى ليعلم هؤلاء الذين لا يرون فى الحياة غير مال يجمعونه ليتعاظموا به على المعدمين وألقاب يسعون إليها ليفاخروا بها المحرومين ليعلموا ألا كرامة لهم ولا شرف الا أن يكرموا مواطنيهم و يعزوا برزق الله ذويهم وأهليهم .

و بعد . . . فإن أدواءنا الاجتماعية قد استفحل ضررها ، وأنذر بالشر خطرها ، وليس لنا وقد دنا الشعب من الهاوية الا أن يسارع كل الى من حوله ، يعاون القادر من يحيطون به من أهل وجيران ، ويساعد مالك الأرض فلاحيه و يرعى شؤونهم ، و يسر صاحب العمل على راحة عماله و يمد القريب قريبه المعوز بما يسد حاجته ، و يقوم المتعلم بنصيبه فى إزالة أمية من يهمه أمره و يبدد بإرشاده جهالته ، فما كان الفرد أن يسعد اذ تشقى أمته فكلنا راع وكل راع مسئول عن رعيته .

محمد عبد الكريم